

الجزء الثالث

العرب وبنية العقل الأمريكى

ما بين سيناريوهات القوة وسيناريوهات التدهور والانهار

سيناريوهات القوة الإيجابية
لصالح أمريكا والعالم معاً

عمل الأمريكيون باجتهاد كبير لاكتساب القوة / القدرة Power على كافة الأصعدة المختلفة ولم يدخروا جهداً فى ذلك سواء على صعيد العلم والدراسات أو على صعيد تفعيلها وجعلها واقماً ممارسةً .

يقول عالم الفضاء المصرى الدكتور فاروق البارز أن وكالة الفضاء الأمريكية ناسا NASA قد تم تدشينها لرفع الأساس العلمى وإشاعة الثقافة العلمية على اتساع الولايات المتحدة فى المقام الأول .

فلهذه الوكالة مواقع علمية منتشرة على صعيد جغرافية الولايات المتحدة الأمريكية وبها كافة التخصصات الحيوية لأن مهمتها الأولى رفع المستوى العلمى من خلال خلايا العلماء وما يخرج منها من دراسات وبرامج وتدريب .

ثم مهمتها الثانية كانت غزو الفضاء الخارجى واكتشافه وتحقيق أهداف متعددة من هذا الغزو ، ويذكر هنا أن العديد من الجامعات الأمريكية تدرس كورسات تعرف بالتجاميمكس Tagmemics ، وهو فرع مهم من فروع علم اللغويات الحديث وهو معنى بفك شفرات ورموز لغة جديدة غير معروفة من قبل .. كافتراض لأن يأتي أحد من الكواكب الأخرى بها ويتمين حينذاك التفاعل من خلال هذه اللغة أو تلك ولقد كانت تلك البرامج الكورسات من توصيات ورعاية وكالة الفضاء الأمريكية NASA، وهذا مجرد مثال لمستته بنفسى أثناء فترة ابتعائى لجامعة جورججتاون وأقدمه هنا ليستشعر القارئ الكريم ما قصدته بمقولة عالمنا الكبير الدكتور فاروق البارز أعلاه .

(١)

نمطان رئيسيان متصارعان لاكتساب القوة..!!

إن تحليل دراسات القوة وكيفية اكتسابها تطبيقاً على الواقع الأمريكى هو أمر خارج نطاق هذه الدراسة ، لكن يمكننا هنا القول بأن هناك نمطين أساسيين لاكتساب القوة وتداعياتهما الرئيسية .

أما النمط الأول فهو ما أورد تسميته بنمط الـ "NASA" فى المثال أعلاه أو بنمط «جون كيندى» حينما قال مقولته الشهيرة إن هذه الأمة ستعمل على وضع رجل فوق القمر وإعادته للأرض سالماً فى غضون عشرة سنوات من اليوم ، معبراً

بذلك على تدشين وتفعيل علم المستقبليات بكل ما يعنيه من إيجابيات عندما يتم وضع سيناريو معياري (Normative scenario) . لصالح أمريكا والعالم ويتم تنفيذه بكفاءة وجهود علمية لا يمكن إلا أن يحترمها كل أصحاب العقول المنصفة في هذا العالم . وهذا نمط يستدعى الاحترام وهو مشروع بطبيعة الحال لاكتساب القوة.. قوة التقدم العلمي والنفع العام للبشر وللإنسانية ولأى منافسة شريفة .

أما النمط الثاني لاكتساب وتفعيل القوة الأمريكية ، فهو ذلك النمط الذى يأتي على حساب الآخرين فى هذا العالم الذى يبنى على مبدأ النفعية الأحادية والميكافيلية السياسية والهيمنة والفرض والإكراه . وشرعية القوة وقانون الغابة والمباراة الصفرية ، فهذا الأمر له تنوعاته وسماته المتعددة بدءاً من التنظير السياسى لمدرسة القوة أو ما تُسمى بـ Power politics أو Gunboat Diplomacy أى «دبلوماسية البارجة» ، وأهم منظرى سياسة القوة هذه هو عالم السياسة المعروف Morgenthau مورجانثو الذى يدرس كتابه المعروف بعنوان «العلاقات الدولية فى معظم الجامعات الأمريكية» فهو يهودى من أصل ألماني ويذهب فيه إلى أن المصلحة الوطنية الأمريكية هى المقياس الوحيد لأخلاقيات السياسة «فهو يشجع على استعمال القوة»^(١) العسكرية وشتى الأساليب دون تردد فى سبيل إحراز تلك المصلحة الوطنية .

وإذا كانت مدرسة القوة لها جذورها العميقة فى هذا الواقع الأمريكى ، فإنه قد قابلها ونقضها خط آخر كبير من الدراسات والتوجهات فى ذات الواقع العلمى والعملى الأمريكى وتمثلت فى مفهوم مباريات «فلنكسب جميعاً» "Win Win" وليس المباراة الصفرية التى تجسدها مدرسة القوة لمورجنتاو ، والتي سميت كذلك بـ "Collective good" أى «الخير للجميع» والمبنى على مراعاة الجانب الإنسانى والأخلاقي ، فهو الأمر الذى تجلّى فى دراسات وممارسات عديدة ولعل أوضح نوعية لهذه الدراسات تتمثل فى أدبيات التفاوض الصادرة عن جامعة هارفارد ذات الأنتشار الواسع للغاية فى الأوساط الأكاديمية وهو كتاب «ما بعد ميكافيللي»^(٢) والذى يدين التفاوض على أساس المباراة الصفرية لأن آثارها البعيدة ليست فى صالح من يوظفها فى نهاية المطاف .

إنه وبعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ ووجود ما يسمى بجماعة القرن الأمريكى الجديد من المحافظين الجدد فى الحكم تعرف العالم على أقصى نظريات القوة تطرفاً كما ورد فى مقولاتهم بخصوص فلسفة ما يسمى بالحرب الجديدة ضد الإرهاب

■ من مباراة فلنكسب جميعاً
إلى مباراة هيمنة صفرية

(١) Morgenthau, Hans J. *The Politics Among Nations : The struggle for power and peace*, 5 th ed, Alfred A. Knopf, N.Y. 1973.

Fisher, Roger, *Beyond Machiavelli*, penguin books, 1996.

(٢) راجع :

حيث تجسدت المقولة الفلسفية المعروفة «أن الاعتماد على القوة فقط يفسد ، والقوة المطلقة تفسد بلا حدود» "Power corrupts & Absolute power corrupts . Absolutely".

ولقد كان من الملامح الصارخة لتطرف الاعتماد على القوة المسلحة بشكل أساسي كأداة من أدوات الدبلوماسية واضحة بعد أن تجاوزت الممارسات والقناعات مجرد الرد المشروع والدقيق على إحداث سبتمبر وذلك بتبنى مفاهيم «الاستباقية الوقائية» "Preemptiveness" والمنع "Preventiveness" وأحادية التحرك خارج إطار الشرعية الدولية إذا تطلب الأمر "Unilateralism" . وتم أستحضار الإسلام ليكون العدو الأيديولوجي الأخضر الجديد "Green Peril" وكذلك تم ترويض مفهوم الفاشية الإسلامية "Islamofascism" وغير ذلك من قائمة طويلة من المسميات لتأطير العدو الجديد واستهدفه على ساحة جغرافية هائلة عبر العالم^(١) .

ولقد كان من ملامح هذا التطرف الصارخ لجماعة المحافظين الجدد هو أستعداداتهم الكبيرة والحث عليها منذ سنوات سابقة إلى أن تملكوا زمام الأمر فبدأ الجانب المعارض لهم داخل الواقع الأمريكي ضعيفا . وقد وجد صعوبة لكبح جماح هذا الخط المتعسك . ولقد صدرت عدة أدبيات مستقبلية على درجة كبيرة من الأهمية تبرر للمواطن الأمريكي ولصناع القرار ضرورة السعي الإمبراطوري للحفاظ على القوة الأمريكية كقوة عظمى وحيدة في «عالم القطب الواحد» .

ولقد تعرضنا لهذا الأمر في سياقات تفصيلية سابقة أوضحت سعي الفكر المتعسك الأمريكي لخوض حروب متعددة ليس فقط على صعيد الشرق الأوسط والعالم الإسلامي بل لحروب متعددة لمنع وجود أى قوة ناهضة وبالتالي وجدنا فى كتاب الحروب القادمة لكسبر واينبرجر وبيترشويتزر التبين إلى الأهمية الاستراتيجية للدخول فى حروب فى الشرق الأوسط وضد إيران بعد العراق وحرب مع روسيا ٢٠٠٧ وحرب مع اليابان ٢٠٠٥ ومع كوريا ووصل الأمر إلى حرب مع الاتحاد الأوروبى الحليف المفترض وإذا دعت الضرورة لذلك!!^(٢) .

(١) راجع لكاتب السطور بحث تفصيلي بعنوان : حروب الهوية ومستقبل التفاوض مع الغرب : نحو المشرق العربى لفقهِ النوازل الدولية ، المكتبة الأكاديمية بالقاهرة ٢٠٠٢ .

(٢) راجع لكاتب السطور كتاب بعنوان «سيناريوهات الحرب والسلام : دبلوماسية المسار الثانى من منظور اللغويات الاجتماعية والسياسية» دار المعراج الدولية للنشر ، الرياض ١٩٩٩ .

(٢)

قراءة فى أدبيات ومؤشرات سيناريو التدهور والإنهيار بعد القوة المطلقة!

إن الصراع القائم بين النمطين الرئيسيين لاكتساب القوة ، المشار إليها أعلاه .. ظل قائماً منذ الحرب العالمية الثانية بشكل يمكن للمحلل الموضوعى ملاحظته ، كما إننا نلاحظ ألوان طيف متعددة فى إطار كل من النمطين . ولعل من الضرورى أن نقدم هنا قراءة فيما نراه على كونه من أهم الأدبيات المعارضة لنمط اكتساب القوة من خلال تبنى المباراة الصفرية .. وسيادة منطق القوة على التفاوض المراعى لأجندات الآخرين وحقوقهم المشروعة والتي تعكس رؤية قائلة بأن هذا النمط يحمل وبشكل مؤكد فى طياته بذور سيناريوهات ووقائع الانهيار الأمريكى وذلك فيما يلى من دراسات ذات طابع مستقبلى وقت كتابتها :

(٣)

دراسة بعنوان الدبلوماسية الأمريكية للسفير الأمريكى جورج كنان عن بذور سيناريو الانهيار^(١)

هذه الدراسة لسفير مخضرم فى الخارجية الأمريكية ، خبير موضوعة جيداً وهو خريج من إحدى أعرق الجامعات الأمريكية ، وهى جامعة برنستون ، وعمل فى سفارات بلاده فى ألمانيا وروسيا وبلجراى وتقلد العديد من المهام وتعتبر دراساته وآرائه ذات أهمية لدارسى العلاقات الدولية . وبعد الفصل الثانى من دراسته بعنوان «الدبلوماسية الأمريكية والعسكريون» من أهم ما كتب للتعبير عن صراع النمطين الذى أشرنا إليه ، بل أن كلامه يدخل فى صميم الرؤية المستقبلية الواضحة التى تكشف بوضوح عن طبيعة المأزق الإنفصامى فى الخارج والداخل الأمريكى ومدى الإرتباط العضوى بينهما .

ولعلنا نتوقف أمام الفقرات التالية من كتابه للتوضيح ، يقول كنان .. من أخطائنا الفادحة فى فترة ما بعد الحرب أننا اعتمدنا على السلاح النووى أساساً لموقفنا العسكرى وثقتنا بهذا السلام فى ضمان ارتفاع شأننا العسكرى والسياسى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .. فكان أن ارتكبنا الخطأ الفظ بافتراضنا أن فعالية سلاح ما تقاس بما له من قدرة على التدمير وليس تدمير قوات العدو وحسب ، إنما تدمير المدنيين

■ الخطأ البشع فى الاعتماد
على قدرة تدمير الآخر

■ الاسرة الدولية ومن يزرع فكر سباق التسلح؟

وتدمير الاقتصاد المدني . ولقد نسينا في هذا الافتراض أن هدف الحرب هو أو ينبغي أن يكون تحقيق الأهداف بأقل قدر من الدمار ، وليس بأكثره . ثم كان من أكبر أخطائنا أننا أهملنا النظر في الدليل القوي الذى يشير إلى أنه لا يمكن للسلاح النووى إلا أن يكون أداة انتحارية فى نهاية المطاف ليس لقوته التدميرية وأثاره على البيئة بل لأن الاعتماد عليه سيستوجب على الآخرين الحصول عليه وإضافته إلى ترساناتهم وبذلك فإن مسئوليتنا كبيرة ويقع علينا اللوم للزج بعدد كبير من أعضاء الأسرة الدولية للدخول فى أشد وأخطر سباق فى العالم وهو سباق التسلح^(١) .

■ النزعة العسكرية المفرطة على الداخل الأمريكى

يضيف كنان فى دراسته المهمة والتي كتبها منذ أكثر من ١٨ عاماً عن أخطاء النزعة العسكرية المفرطة . بل والمتطرفة كأداة من أدوات إدارة العلاقات الدولية بأن لهذا الأمر مردوده السلبي فى الماضى والمستقبل على ذات الداخل الأمريكى حين يذكر : «أنه من هذه الأخطاء ، على ما أرى ، برزت النزعة العسكرية المتطرفة فى فكرنا وفى حياتنا .. ولقد كان لهذه النزعة العسكرية آثار عميقة لم تقتصر على سياستها الخارجية فحسب ، وإنما تعدتها لتبلغ مجتمعنا ذاته كذلك وكان من ذلك أنها أدت إلى تشويه اقتصادنا أشد تشويه .. فلقد حملنا على اعتياد أنفاق قدر كبير من دخلنا كل عام على انتاج الأسلحة وتصديرها وإدامة قوات عسكرية ضخمة مترامية - وهذا كله لا يضيف شيئاً إلى طاقة اقتصادنا الانتاجى وإنما يحرمنا من عشرات البلايين التى من الأجدر الاتحاد السوفيتى «المشكلة التى كان يتحدث عنها كنان فى ذلك الوقت» علينا وما هو إلا نتيجة لعادتنا فى إدمان هذا المجمع العسكرى الصناعى^(٢) .

■ من الخطر الخارجى إلى الداخلى

لقد أشار كنان إلى عمق المشكلة المتأصلة فى بنية العقل الأمريكى فيما يتعلق بممارسات المجمع العسكرى السياسى والذى أعزى إليه خلق رابطة معقدة وأره أبلغ الضرر تنشأ بين منتجى السلام وتجارته وأولئك الذين يشترون^(٣) ويضيف قائلاً «أن نمو هذه النزعة العسكرية على إمتداد السنوات لا يشكل خطراً خارجياً فحسب ، وإنما خطراً داخلياً ينال من هذا البلد ، بما أصبح من إدمان قطاعات كبيرة من مجتمعنا لهذه العادة المؤذية بلغ الأذى ، وبما يكاد لا يرجى لهم شفاء منه .

لقد زاد من سوء هذه المعضلة الإسفاف غير المبرر فى ممارسة هذه العادة ، ثم التنافس بين دوائر الحكم الذى يؤدي إلى ما يؤد من تكرار الجهد دون طائل ، وازدواج المعايير التى نعتمدها فى حساب الكلفة وتقدير النتائج كما فيما بين

(١) المرجع السابق ، كنان ، ص ٢٠٣ .

(٢) السابق ، ص ٢٠٤ .

(٣) السابق ، ص ٢٠٤ .

الاقتصاد الحربى ، والاقتصاد المدنى ، كذلك زاد من تفاقمها الافتقار لكل علاقة منطقية بين ما يعتمده مجلس النواب من المعايير فى دراسة الانفاق العسكرى والانفاق فى الوجوه غير العسكرية^(١) .

ويضيف كنان قائلاً : «ويلوح لى أحياناً أن هؤلاء من الذين يبرأون من هذه المؤسسة العسكرية الصناعية الضخمة عرضة لأن يصبحوا بالمعنى المجازى للكلمة ، أمة من المتسولين مثل أولئك البائسين الذين كانوا يلحقون بأذيال الجيوش الأوربية فى القرون السابقة أملاً فى التقاط سقط الطعام والثياب عما كان الجند يخلفونه وراءهم. إن هذه الظاهرة إذ تفسد علينا حياتنا داخلياً تعود من جديد لترتد وتنال من سياستنا الخارجية أيضاً . ذلك إن اقتصاداً حربياً ضخماً كهذا الذى نقوم عليه ليقضى التبرير الدائم لاستمراره . ولقد صاحب هذا الأمر إن نهنا بإبراز العوامل العسكرية على حساب العوامل السياسية فيقودنا هذا إلى المبالغة فى اعتماد العوامل العسكرية فى صوغ استجابتنا التى لا ترى إلى تدمير الخصم وشل إرادته تماماً وهذا ما يراه كنان على كونه بمثابة بذور الأنهيار .

فى خضم تعاملنا وتحليلنا لبنك تفاعلات ما سعى بالحرب الجديدة ضد الإرهاب رصدنا فى مقالات سابقة حاولنا فيها رصد حجم الجدل الراهن فى الواقع الأمريكى ليس فقط حول أزمة العراق الأخيرة بل حول عمق الجدل الممتد بين أنصار الاقتصاد المدنى وأنصار عسكرة الاقتصاد الأمريكى . من هنا نربط ما يحدث بين هذا الجدل النوعى فى خضم الحرب ضد الإرهاب وبين ما كان قد ذكره الدبلوماسى الأمريكى كنان الذى قد تحدث فى سياق الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتى عن عمق ذات المشكلة التى رصدنا جذورها فى عمق أزمة الحرب الجديدة ضد الإرهاب اليوم وذلك من خلال مقالات عديدة^(٢) .

(٤)

قراءة فى دراسة مستقبلية لوليام ميلز بعنوان :

« سيناريو للتدهور فى أمريكا »^(٣)

فى هذه الدراسة المستقبلية المهمة لكاتبها وليام ميلز ، وهو أحد خبراء المستقبليات المتخصصين فى طرق البحث السياسى الذين يقومون بإجراء دراساتهم

من تحليل كينان فى الثمانينات إلى تحليل وقائع أزمة الحرب الجديدة ضد الإرهاب اليوم ومحطة العراق أولاً فى بداية الالفية الثالثة !!

(١) السابق ، ص ٢١٦ .

(٢) راجع لكاتب السطور المقالات التالية على سبيل المثال لا الحصر : الباحثون عن الحقيقة داخل أمريكا (١) ، الأهرام ٢٠٠٢/٢/٢٨ ، وكارتز والباحثون عن الحقيقة داخل أمريكا (٢) الأهرام ٢٠٠٣/٣/١٩ وحوار الحضارات لإصدامها ، الأهرام ٢٠٠١/١/١٤ .

(٣) Mills, William, "Ascenario for Decline in America", The Futurist, sept. - October 1996.

من خلال النماذج الحاسوبية التي يمكن تطبيقها في التحليل الاجتماعي .

يقول ميلز في مستهل دراسته «إن السيناريو المقدم بها قد يبدو للبعض متشائماً، خاصة وأن يتم التنبؤ به على أساس عدم وقوع كارثة أو إخفاقات مفاجئة أو تهديدات جديدة . وبإيجاز يرى ميلز أن عناصر التدهور التي يرى لها مكانم ويؤثر في داخل الواقع الأمريكي تتمثل في خواص بعينها إذا لم يتم التعامل معها ستكون نواة إتهيار القوة الأولى في العالم وهي كما يلي :

١-٢ بقاء عوامل الإهدار بالمعدلات القائمة .

٢-٢ الاستهلاك الأكبر على حساب المدخرات .

٣-٢ بقاء النزعة الفردية الاجتماعية وزيادتها حيث يتأثر الجميع بما يؤدي إلى فشل محاولات الإصلاح الاجتماعي .

٤-٢ قتل الدافعية الفردية الابتكارية الحقيقية حيث وجود الاعتبار الأكبر في منح المنح والدرجات والوظائف والترقيات على أساس أسباب سياسية أكثر منها عن استحقاقات وجدارة ، وزيادة معدل توظيف هذا المعيار في الحياة الأمريكية "For those who are politically correct" .

٥-٢ شيوع ظاهرة وجود عائل يعتمد عليه عدد كبير من الأفراد وعلى راتبه في الأسر الأمريكية . مع تدهور في الرواتب مع وجود المنافسة في أسواق العمل الداخلية والدولية .

٦-٢ وجود النزعة الانعزالية الأمريكية وزيادتها إلى الحد الذي يجعلها تخرج خارج نطاق منظمة الجات GATT . وتحاول تجاوزها كما ستحاول الخروج خارج نطاق الأمم المتحدة وتهميشها .

٧-٢ هروب المستثمر الأجنبي إلى أسواق أكثر ترحيباً به وحدوث شقاق مع الحلفاء .

٨-٢ هذه العوامل أعلاه ستؤدي إلى استنفاد الاحتياطات المالية الشخصية وهنا يبدأ التدهور الحقيقي وتتاثر ميزانيات البنية التحتية وينخفض مستوى التعليم ، وتفلس المدن أكثر فأكثر . ويحدث تغريب أكثر للمواطن الأمريكي . ويهرب السكان ويتم إعادة تقسيم الكعكة وليس تكبيرها .

٩-٢ تترث جنوب شرق آسيا وأوروبا الغربية (الاتحاد الأوربي) قيادة العالم بعد التدهور الأمريكي وقيام هذه الدول بتوسعة أسواقها وفرصها بتبنيها للتعدية . وستكون ألمانيا على وجه الخصوص الدينمو المحرك لأوروبا بأكملها . كما يرى أن الصين على وجه الخصوص سيكون لها الريادة . ويرى ميلز أن العوامل السابقة والتي

لها جذورها ومؤثراتها وشواهدنا على الساحة الأمريكية قد تتفاعل بشكل سريع على غرار ما يحدث في لعبة الدومينو ، فيحدث تدهور سريع . هذا إن لم يتم تدارك الأمور التي يحذر منها ميلز والذي يرى أن الحل يتمثل أساساً في التعليم . الذي يعتبره أهم ما يمكن التركيز عليه لتجنب سيناريو الانهيار .

(٥)

قراءة في « إغلاق العقل الأمريكي »^(١) للفيلسوف الأمريكي المعروف آلان بلوم

Allan Bloom Closing of the American Mind

آثار هذا الكتاب ولا يزال جدلاً ومناقشات كثيرة للغاية في الواقع الأمريكي رغم صدوره في عام ١٩٨٧ ويعد من أكثر الكتب رواجاً بين الكتب المهمة التي صدرت في الواقع الأمريكي بهذا المسمى المباشر حيث يقدم كاتبه نقداً عنيفاً لما أسماه بالأزمة الاجتماعية السياسية في أمريكا . ويعتبر أن الأزمة هي في مقامها الأول أزمة فكرية Intellectual crisis ومن يطلع على هذه الدراسة المتعمقة يمكن أن يفهم بعداً مهماً من أبعاد أزمة الفكر الأمريكي اليوم وغداً . ويرى أن عمق الأزمة التي أراد أن يعالجها يعود لما ينتج نظام التعليم الليبرالي ذاته ففي أول صفحات الكتاب نجد صفحة قبل صفحة العنوان الداخلي لا يوجد بها إلا سؤالاً واحداً مكتوباً بخط كبير وهو :

« كيف أفضل التعليم العالي في أمريكا فكرة الديمقراطية وكيف أفقر هذا التعليم أرواح الطلاب الخارجيين من أطر هذا التعليم ؟ »

وعلى مدى هذا الكتاب المهم المؤلف من ٣٩٢ صفحة يجيب بلوم على السؤال المركزي السابق الذي يتضح من صياغته أنه سؤال إخباري أكثر منه إستفهامي ، حيث يعبر بلوم عن تشاؤمه الشديد من المستقبل الأمريكي في ظل تعليم لا يخدم المعنى المفترض للديمقراطية كما ينبغي وأن تعنيه الكلمة .

(٦)

كتاب استنساخ العقل الأمريكى « إقتلاع الأخلاقيات » من خلال التعليم لكاتبة بيفرلى إيكمان^(١)

Coloning of the American Mind

فى هذا الكتب المهم تنتقد الكاتبة ذات الخبرة العملية بالعملية التعليمية فى أمريكا ما يحدث اليوم فى التعليم الأساسى بأمريكا حيث تذكر إنه قد بدأت عملية احلاله واستبداله من تعليم يعزز من قيم الحرية والتبوع الفردى والتحليل الموضوعى الحر وهو الذى أدى إلى أهم إنجازات أمريكا الكبرى إلى تعليم مستجد يعتمد كل المفاهيم الشمولية «وغسل الأدمغة» وزرع قيم جماعية لها مقاصدها السياسية البحتة مع إضعاف واحتواء واستبعاد دور الوالدين ودور الكنيسة كذلك وأى أدوار أخرى سوى المنهج التعليمى المراد زرعه فى أدمغة كل الطلاب فى أمريكا . حتى أنه قد تم تقنين الأمور بحيث لا تهرب المدارس الخاصة من هذه السيطرة ولقد كشفت إيكمان ماهو أخطر من التعليم الشمولى الذى لا يخرج عن نظريات ماركس وكل أعمدة ورموز الفكر الشمولى الاشتراكى بشكل مستجد فقط، بل تشبهه إيكمان بفكرة التعليم النازى الذى كان سائداً فى ألمانيا النازية التى استهدفت التعليم بها فى تلك الفترة الهتلرية حيث تم تخريج «نسل نازى معدل» (Mazi - inspired eugenics) . ولقد كشفت إيكمان ماهو أخطر من ذلك حين أوضحت فكرة بيع عقول الأجيال الأمريكية واختراق كل خصوصية لها بعد تمام السيطرة عليها ، حينما أوضحت ما يشير إلى نوع من التجارة السرية بإتاحة البيانات عن الأطفال وذويهم لشركات الإعلانات وبيوت دراسة الأسواق فى إطار ما أسمته على وجه التهكم «بتحالف أنصار الأمية» Illiteracy Cartel أو «بالجماعة المختكرة للأمية» .

حيث تقول أن قوة هذا التحالف وتحقيق أقدام راسخة له يعتمد على قيام حلف المستفيدين مالياً وسياسياً من الجهل الناتج عن تعليم ضعيف مصاب بالتشوهات . حيث يتم استخدام المعلومات عن الطلاب وذويهم ، وبعد ذرع النظام القيمى الذى يريدونه فى أدمغة الطلاب وبيعها لشركات التجارة وإدارة الأعمال لاستهداف زبائنهم . وتقول إيكمان أن المصطلح المستخدم هنا هو ما يعرف بـ «السيكوجرافى» Psychographics أى بالرسم البيانى النفسى الذى يتم فيه تسجيل القوة النسبية

Bevly Eakmn, Coloning of The American Mind : Eradicting Morality Through Education, (١) Hunting House Publishers, 1998.

لمختلف السجايا أو السمات الشخصية وصفاتها . والسيكوجراف يعتبر طريقة لدراسة البيئة الاجتماعية بالاعتماد على الديموجرافية التي تعنى التعرف على الدخل والجنسية الأصلية واللون والدين والسمات الشخصية . وهذه السمات يمكن من خلالها التنبؤ بالسلوك وتستخدم هذه الطريقة فى مجال إدارة الأعمال وتستخدمها شركات الاعلانات ودارسى الأسواق من باب أن التنبؤ بسلوك المستهلك من الأمور التي يمكن التعرف عليها ويمكن أن يكون ذلك عاملاً مؤثراً فى رواج أو عدم رواج السلع . وتقول إيكمان أن هناك تجميع بين أسلوب السيكوجراف وأساليب السيطرة وتعديل التصرف والسلوك فى جوهر العملية التعليمية اليوم فى أمريكا .

وتنتهى إيكمان وكل من يؤيدها فى مسعاها للكشف عن أزمة التعليم الأساسى فى أمريكا وأهمية التدخل الإيجابى لمنع المزيد من تدهوره إلى أنها وكل من يؤيدها يعتبرون أنفسهم اليوم بمثابة «حركة مقاومة» فى معركة غير متكافئة .

(٧)

أسئلة وسمات أخرى محورية لاستكشاف

سيناريو القوة وسيناريو الانهيار

أوضحنا فيما سبق مجموعة مهمة من الدراسات ذات الطبيعية المستقبلية ، وكلها تتعرض بالتحليل إلى ما يمكن فهمه على كونه عوامل لتقييم مؤشرات سيناريوهات «القوة» و «الانهيار» أو «الطفو» و «الغرق» على حد تعبير شاعرنا الكبير أحمد تيمور والملاحظ أن أهم العوامل التي يراها فريق فى الداخل الأمريكى على كونها عوامل القوة وتحقيق الهيمنة أو السيطرة الأمريكية على العالم والاحتفاظ بعالم القطبية الأحادية الراهن يراها فريق آخر على كونها نفس عوامل وبذور التدهور والانهيار ومن الملاحظ أن الدراسات السابقة كلها وضعت إصبعها على التعليم كمصدر من مصادر انهيار القوة الأمريكية أو مصدر لبناء واستمرار القوة . وفيما يلى سنرصد إجابات عن سؤلين آخرين ضروريين لاستكمال الرؤية الشاملة لجوانب بنية العقل الأمريكى فيما يتعلق بسيناريوهات القوة والانهيار وهما :

١ - هل سيحدث فى الولايات المتحدة ذلك التفكك الذى سيؤدى إلى حدوث سيناريو الانهيار كما حدث فى الاتحاد السوفيتى السابق ؟ أو كما حدث فى يوغسلافيا السابقة ؟

٢ - وإذا كانت هناك دراسات مستقبلية قد تنبأت بالفعل بتفكك وانهيار الاتحاد السوفيتى السابق إلا أنها أخفقت فى أن تدرك السرعة الرهيبه لهذا

■ أسئلة يصعب الإجابة الدقيقة عنها:

الانهيار^(١) ؟ فهل تمر الولايات المتحدة الأمريكية بمثل ما حدث للاتحاد السوفيتي ؟ وهل في حالة حدوث مثل هذا السيناريو سيتخذ العامل الزمني في الانهيار اتجاه المفاجأة أم أن الأمور ستأخذ وقتاً ما ؟ وما قدره ؟ شهر - سنوات أم عقود ؟ أم أن الأمر سيختلف كما يذهب نيكسون في كتابه بعنوان «انتهزوا الفرصة»^(٢) وستستمر الامبراطورية الأمريكية إلى فترة طويلة من الزمن. في الحقيقة أن هذه أسئلة صعبة من حيث الإجابة الدقيقة والمحددة عليها ، ولكن ما سنحاول رصده في هذه الدراسة الأولية هو الإشارة إلى كوامن وعوامل سيناريو الانهيار التي إذا ما تفاقمت وصعب أمر السيطرة عليها ، فإنها ستؤدي حتماً إلى الانهيار . ولعلنا نبدأ بتأمل السؤال الأول التالي ، وما يتضمنه من حقائق وطرائف بشكل موجز :

■ لقد كان تيتو في يوغسلافيا وجورباتشوف في الاتحاد السوفيتي فمن في أمريكا ؟

هناك مثال طريف بخصوص ما حدث في يوغسلافيا بعد أن أصابها سيناريو التفتت والتفكك ، وهنا يذكر أحد جنرالاتها بأن يوغسلافيا تجمع العديد من الأعراق والأجناس والديانات المتعددة وهو يشبهها بزجاجة مليئة بسوائل مختلفة الكثافة كالزيت والمياه وما إلى ذلك ، وأن الرئيس الراحل جوزيف تيتو كان على حنكة ودراية عميقة بالموقف اليوغسلافي برمته فكان يمسك بهذه الزجاجة (أي يوغسلافيا) فيرجها بحرفية واستمرارية إلى أن مات تيتو وترك عملية رج الزجاجة بحرفيته العالية ، فإذا الزجاجة تسكن وتأخذ السؤال التي بها طبقات منعزلة متفككة كل طبقة وشأنها وهذا يشابه ما حدث من تفكك حقيقي على أرض الواقع بذهاب العبقري الراحل تيتو الذي إنفتحته يوغسلافيا وافتقدت بعده تماسكها ، وعانت ولا تزال من حالة التفكك .

أما في حالة السيد ميخائيل جورباتشوف فلقد ذكر الكثير عنه وعن إسهاماته المقصودة التأمرية مع الغرب «لإحداث الانهيار والتفكك» أو عن ممارساته غير المقصودة وغير الواعية . كما ذكر كذلك أن عوامل الانهيار والتفكك كانت أكبر من جورباتشوف أو غيره وأنها حدثت بفعل فاعل رئيسي وأساسى بعيداً عن الخارج وهو النظام الشيوعي الشمولي بكل ممارساته التي هي ضد طبيعة التقدم الذي ينبغي أن يبدأ بحرية الفرد وتحرره في إطار الحافزية الفردية التي تصب في قنوات جماعية تؤدي إلى النهضة والتقدم الجماعي والحقيقي للدولة وللشعب ، وإن قتلها وحجبها لجدير بإحداث الانهيار والتفكك لأي مجتمع في نهاية المطاف .

(١) راجع مقال بعنوان «دراسات الأمن : ماضيها وحاضرها ومستقبلها» ، دراسة أمريكية نشرت بالإنجليزية للباحثة نيتاس كراوفورد بعنوان Once & Future Security : Security Studies, vol. 1, No 2 Winter 1991 pp 283-316

(٢) راجع كتاب رينشارد نيكسون «انتهزوا الفرصة : التحدي الأمريكي في عالم الدولة العظمى الواحدة» ، ترجمة حاتم غانم ، شركة قيتباي للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ١٩٩٢ .

وهناك الكثير مما قد يقال عن شعور أبناء الاتحاد السوفيتي السابق السلبى للغاية تجاه النظام الشيوعى وتجاه أنماط الحياة التى كان الشعب - ولا يزال - يعانى من وطأتها وتحلف أسلوبها .

وإذا كان كل من «تيتو» و «جورباتشوف» يمثلان ما أنتجته الظروف والمنطلقات الشيوعية والتى كانت تحمل بذور فئائها فى هذا النظام بشكل أكبر من أى نظام آخر وهو ما ثبت بالدليل القاطع ، فإن ما ساعد على تفكك وانهيار كل من «الاتحاد السوفيتى» السابق ويوغسلافيا السابقة إن الجمهوريات والمقاطعات فى كل من البلدين تتضمن كيانات عرقية ولغوية ودينية أكثر انفصلاً بطبيعتها ، وهذا الأمر ينقلنا إلى الإجابة عن بقية السؤال «فمن فى أمريكا» ؟

وهنا نرى أن صرخة «صدام الحضارات» أو كما أسماها المفكر إدوارد سعيد «بصراع الجهالات» قد تكون الأساس الذى سبنى عليه خطوة تفكيك أمريكا ذاتها قبل غيرها^(١) ، وهنا نلاحظ أن الأعراق والأديان تكاد تختلط فى نسيج واحد عبر الولايات المتحدة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وهذا يجعل المقارنة من هذه الزاوية متناقضة لما كان كائناً فى كل من الاتحاد السوفيتى السابق ويوغسلافيا السابقة ، كما أن السؤال الأكثر أهمية هو : ما طبيعة النظام الرأسمالى الليبرالى فى أمريكا وما عوامل أو بذور فناء مثل هذا النظام ؟ وما أدوات السيطرة عليها ؟ وما العوامل الخارجة عن السيطرة ؟ أو التى قد تكون ذلك ؟ والإجابة بحاجة إلى تفاصيل كثيرة، ولكن يمكننا عقد مقارنة هامة هنا وهى أنه بموت تيتو لم يتوفر ليوغسلافيا من يستطيع «رج الزجاجة» بحرفية تيتو فانتهدت يوغسلافيا السابقة إلى التفكك ، وأن جورباتشوف والنظام الشمولى الشيوعى قد أخفقا فى الاحتفاظ بالاتحاد السوفيتى السابق بعيداً عن سيناريو الانهيار والتفكك السريع للغاية . وما يمكننا تصوره هنا بخصوص صعوبة حصول التفكك أو الانهيار فى الولايات المتحدة الأمريكية بالأسلوب الذى حدث فى كل من الاتحاد السوفيتى ويوغسلافيا يكمن فى أن الذى يقوم «برج زجاجة الأعراق والأجناس» وخلطة المجتمع الأمريكى ليس شخصاً واحداً فالحا مثل تيتو فى يوغسلافيا السابقة مثلاً بل الذى يقوم «برج الزجاجة» إذا استخدمنا هذا التعبير للدلالة على الحفاظ على وحدة تماسك عناصر المجتمع وانصهاره فى نسيج واحد هو «النظام» بمعنى الـ System وهذا معنى يتسع لكل أنواع النظام أى نظام الحكم وتداوله - النظام الاقتصادى - والبيع والشراء ونظام العمل فى الجامعات والمؤسسات الحيوية كلها على مختلف الأصعدة إن إحكام وجود نظام يعلو فوق مكانة أى فرد من شأنه أن يحقق التراكم والاستمرارية ومرونة

(١) راجع لكاتب السطور مقالاً بعنوان «إدعاءات هنتنجتون تودى إلى تفكيك أمريكا» ، الأهرام ٢٠٠٢/٢/٩ .

الحركة وسرعة الأداء . هذا النظام العام في المجتمع هو العامل الأقرب الذي يقوم «برج الزجاجة في الولايات المتحدة» . وباختلال مثل هذا النظام يختل «الرج» وتتحرك الأمور نحو سيناريو الانهيار ومن هنا يكون رج نظام الاقتصاد المدني والرج بنظام اقتصاد الحرب هو الخلل بعينه الذي سيرج المجتمع والفكرة الأمريكية من أساسها كما أوضحنا في تغطيتنا لكتاب الدبلوماسية الأمريكية في مستهل هذه الدراسة ، وبالإضافة لما ذكرناه نحاول هنا أن نرصد بعض المؤشرات الأولفية الأخرى التي قد ترجح سيناريو الانهيار في الولايات المتحدة الأمريكية إذا ما استمرت هذه المؤشرات في الخروج عن نطاق السيطرة في المجتمع الأمريكي وهي كما يلي :

لقد أطلق خبراء علماء اللغة الاجتماعي تعبير «بوتقة الانصهار» Melting Pot على المجتمع الأمريكي بوصفه بوتقة لصهر الأجناس المختلفة التي جاءت من جذور ثقافية وعرقية مختلفة من كل مكان في العالم لتكون ما سُمى بالشعب الأمريكي^(١) . ولقد شاع هذا المصطلح لفترة عقود طويلة ، ولكن أُكتشف أن بوتقة الانصهار لم تعد تصهر كما كانت ، كما أُكتشف تمسك أجناس وثقافات عديدة بجذورها وعدم قابليتها للانصهار بل للتعايش والتواجد فقط مع الآخرين فجاء تعبير «طبق السلطة» (Salad Bowl) ليعبر عن هذا الوضع ، وكلنا نعرف أن بوسع أى إنسان ينظر إلى «طبق السلطة» أن يرى عناصره التي يمكن فصلها وأنها لم تنصهر . وأصبح التعبير الأخير هذا الأقرب من تعبير الانصهار الذي سبقه ، كما تشير العديد من المؤشرات إلى بدايات أشكال من التفكك النشط لنسيج المجتمع الأمريكي فما هذه المؤشرات ؟

تعد ولاية تكساس أكبر ولاية في الجنوب الأمريكي ، وعندما كنت طالباً بجامعة تكساس في أوستن ١٩٧٩ - ١٩٨١م بدأت أسمع عما يُسمى بمحاولات يقوم بها أهل تكساس للانفصال عن الولايات الـ ٥١ الأخرى ، بحكم أن تكساس من أغنى الولايات وهي تفيد الولايات الأخرى ولا تستفيد منها . وبدأت أعلم أن هناك من الانفصاليين من ينادون بعودة جمهورية تكساس التي كانت جمهورية قائمة بذاتها في الماضي قبل أن تنضم للكيان الفيدرالي الأمريكي ، كذلك هناك حركة انفصالية في كل من ولاية كاليفورنيا وولاية نيوميكسيكو ، وهناك من ينادى بانفصالهما ولقد تدخلت قوات الحرس الوطني الفيدرالي في حالات بعينها لقمع مثل هذه الحركات . وهناك عدة عوامل تزيد من هذه النزعات الانفصالية عند إفلاس العديد من الولايات .

■ من «بوتقة الانصهار» إلى «طبق السلطة» ومؤشرات نحو التفكك

■ القنبلة القومية والكلام عن إعلان جمهورية تكساس وجمهورية كاليفورنيا، ونيوميكسيكو، وتدخل «الامن المركزي الامريكى»!

(١) بخصوص مصطلح «بوتقة الأنصهار» راجع : Glaser & Daniel Patrick, Beyond the Melting Pot **** press. Combridg - Mass : achusetts 1963.

ولقد كانت ولاية نيويورك على وشك الإفلاس في مطلع التسعينات وتدخلت الحكومة الفيدرالية ومنعت هذا الإفلاس من الحدوث ولكن السؤال المطروح إلى متى ستظل الحكومة الفيدرالية قادرة على ميزانيات العديد من الولايات التي لا تتمتع بالاكْتفاء الذاتي ١٩

بالإضافة إلى هذا البعد الاقتصادي ، فإن ما يُعرف اليوم «بالقنبلة القومية» سيكون لها تبعات مستقبلية قد تدخل في عوامل سيناريو الانهيار . ففي كتاب «تجديد أمريكا» للمؤلف المعروف جنجريتش الذي أفاد بأن من المستجدات الحادثة في المجتمع الأمريكي هو رفض الكثير من أبناء الشعب الأمريكي لكثير من القيم والتقاليد والمؤسسات التي نشأت عليها الأجيال الأولى وإن هذه القيم من أهم القيم التي ساعدت على الجد والتعاون والإيثار وهو ما عرف بـ «طريقة التوحيد» (United Way) وقيم العمل الشاق التي تشكل أساس منظومة اجتماعية ساعدت على قوة نسيج وانصهار الأجيال الولي في المجتمع الأمريكي .

وأن منظومة تلك القيم تعاني اليوم من حالة تحلل وتآكل وحالات صارخة من انفلات السلوكيات في المجتمع الأمريكي مما زاد من معدلات الجريمة إلى مستويات غير مسبوقة وغير موجودة بهذه المعدلات في أي مكان آخر في العالم . كما نتج عن انفلات هذه السلوكيات وتحلل منظومة القيم التي كانت تدعم نسيج المجتمع وجود حالات من الفقر الشديد حيث وصل عدد الذين يسكنون الشوارع بلا مأوى (Homeless People) ما يقرب من عشرين مليوناً من أفراد الشعب . هذا في الوقت الذي لا تزال الولايات المتحدة تستقبل أعداداً ضخمة من المهاجرين سنوياً من مختلف أنحاء العالم غير الذين يدخلون إلى الولايات المتحدة بطرق غير قانونية أو مشروعة . وهذا العدد الكبير يأتي بخلفيات ثقافية ومفاهيم غير منتمية للواقع الأمريكي المعبر عن بعد «بوتقة الانصهار» التقليدي / القديم والآخذ في التغيير كما أشرنا إلى ذلك آنفاً . وأن هذه النوعية من المهاجرين الجدد ليس لديها النزوع للاندماج الحقيقي في المجتمع الأمريكي بل تشعر بالفضل والتفضل منها على المجتمع التي جاءت لتعيش فيه^(١) ، مثلها في ذلك مثل ما يقال ويشاهد عن أساس وجذور النزعة الانفصالية Segregation movement في المجتمع الأمريكي كما أشرنا آنفاً خاصة في ولاية كولواية تكساس التي حدثت بها أحداثاً متعددة شاهدها بنفسى أثناء وجودى للدراسة في جامعة تكساس في الفترة من ١٩٧٩ - ١٩٨١ ، وتابعت بعض الأخبار المتكررة وتدخل الحرس الفيدرالى أثناء فترة رئاسة بوش الابن

(١) بخصوص طبيعة المناقشات حول طبيعة المهاجرين الجدد لأمريكا وما يثار في هذا الصدد راجع التحقيق التالي :

Another Great Migration : High U.S Immigration spurs New Debate About Who's Coming To America, *The Futurist*, March, April 2000.

كحاكم لهذه الولاية وفي أواخر التسعينات . ومن الطريف أن أشير إلى أحد الكروت التالية التي تباع في مكاتب ولاية تكساس والتي يمكن شراؤها بالطبع لإرسال تحيات من تكساس إلى أى مكان آخر . والكارت يوضح ولاية تكساس وهي تظهر بحجم أكبر بكثير من حجمها الطبيعي على خريطة الولايات المتحدة - رغم أنها أكبر الولايات فعلاً في أمريكا . والكارت يضع اسماً طريفاً لكل ولاية أخرى من الولايات ويكتب على أعلى الكارت «تكساس ومستعمراتها» والكارت يشير بطريقة إلى أمر شعبي محسوس وبقوة لدى أبناء تكساس التي كانت فى الماضى «جمهورية تكساس» والذين يشعرون بإحساس التفضل على بقية الولايات الأخرى حيث لدى تكساس أكبر مخزون بترولى وأكبر قدر من الماشية وهي ولاية غنية للغاية تستفيد من ثرواتها الولايات الأخرى أكثر مما تستفيد هي منهم .

■ جرائم العنف والقتل والعجز عن

حماية المجتمع!

تصدر الولايات المتحدة الأمريكية قائمة دول العالم فيما يتعلق بمعدلات الجريمة وأحداث العنف والإرهاب ، وتذكر د. باربارا ويلسون أستاذة الإعلام بجامعة سانتا باربارا بولاية كاليفورنيا الأمريكية والتي زارت مصر عام ١٩٩٥ وتحدثت فى عدد من المراكز والمعاهد فى مصر^(١) عن التأثيرات النفسية والاجتماعية المختلفة لبرامج العنف ودورها فى زيارة السلوك العدوانى لدى الأطفال فى الولايات المتحدة ، فقالت أن عدد أفعال العنف فى كل ساعة مشاهدة - وحتى يبلغ الطفل الخامسة عشرة - تبلغ ٨٠٠ جريمة وما يزيد على مائة ألف فعل عنيف فى المتوسط وهي نسبة مرتفعة للغاية وغير مسبوقه فى التاريخ ويتعرض لها الطفل الأمريكى من خلال القنوات التلفزيونية العديدة ، ولقد حذر الرئيس الأمريكى كلينتون من خطورة هذا الوضع على المجتمع الأمريكى وذكر أن العنف والمخدرات إذا ما ظلت على مستوياتها الراهنة والمتزايدة فإن هذا الوضع من شأنه إجهاض كل إنجازات المجتمع الأمريكى على مدى العقود السابقة . ولقد تكررت مثل هذه التصريحات عقب كل حادثة يقوم بها أحد المراهقين فى المدارس الأمريكية ممن يقومون بعمليات قتل عشوائى جماعى لزملائهم فى المدارس الأمريكية وتفيد بعض الدراسات المتداولة فى مجال المستقبليات والدراسات الاجتماعية بأن أمريكا تأتى فى المرتبة الأولى فى الدول الغربية فيما يتعلق بجرائم القتل والأشكال الأخرى لجرائم العنف .. وفى هذا الشأن نجد أن بريطانيا فقط تتفوق على أمريكا فى مجالات الجرائم ضد الممتلكات . ويذكر أن روسيا وفى ظل الفوضى التى سادت البلاد عقب انهيار الاتحاد السوفيتى السابق وتفككه خلال عام ١٩٩٣ م لم تتجاوز ثلث تلك الجرائم التى وقعت فى ولاية نيويورك فقط فى نفس العام . ولا تزال معدلات الجرائم والعنف فى الولايات المتحدة فى حالة ازدياد بالرغم

(١) راجع تحقيقاً نشره الأهرام المسائى لعبد الخالق فاروق بعنوان «العنف المستورد فى علب كروتون .. كيف تصدى له ؟ ١٧/١١/١٩٩٣ .

من وجود ما يزيد عن المليون ونصف من المجرمين والمعتقلين في السجون الأمريكية . وهو الوضع الذي يشير إلى عجز أمريكا عن توفير الحماية الأمنية العادية لأفراد المجتمع الأمريكي^(١) .

أتذكر جيداً أنه وأثناء الحملات الانتخابية بين كل من جورج بوش الرئيس الأمريكي السابق ومرشح الحزب الديمقراطي في ذلك الوقت بيل كلينتون حاول الأخير اللعب على أوتار اضطهاد السود في المجتمع الأمريكي وإلقاء اللوم على جورج بوش وسياسته في أمور علاقة «البيض» «بالسود» وأشار إلى لوس أنجلوس الشهير حينذاك ، وهنا لم يكن لجورج بوش أي رد على كلينتون ، بل كان الرد الفوري كما أتذكر من جانب مستشاري الحملة الانتخابية لكلينتون ، حيث قالوا له وبحسم شديد «ابتعد تماماً عن إثارة مثل ذلك الموضوع» فإنه لو تفجرت المناقشات والانتقادات حوله لتفجرت أموراً ينبغي وأن يظللها الصمت وعدم إثارتها بأي شكل من الأشكال ، لأن هذا قد يعصف بالأخضر واليابس في عرض أمريكا وطولها . إن هذه القصة تفيد بدلالات تفجر قضية العنصرية كواحدة من أخطر عوامل تفجر وانهيار المجتمع الأمريكي إذا ظلت في حالة التفاقم والتجاهل أو عدم القدرة الراهن على التعامل مع جذورها ، ولعل من أبرز الأحداث في هذا الصدد ما عرف بظاهرة أو «مسيرة المليون شخص» بقيادة لويس فرقان الذي قال عنها :

«إن مسيرة المليون شخص» تعنى بصورة رئيسية أن الأمريكيين المنحدرين من أصل أفريقي قرروا التعامل مع مشاكل الشعب الأمريكي بصورة واضحة وأفضل من ذي قبل والتعريف بالدور الذي يمكن أن يقدموه لأنفسهم ويقدمه الإسلام كى يتخلص السود ومعهم الشعب الأمريكي من السلوك المدمر للذات الذي تسير البلاد على طريقه^(٢) ويذكر لويس فرقان أنه ومنذ حركة الحقوق المدنية في بداية الستينات وحتى اليوم تعرض المجتمع الأمريكي الأسود لانحدار أخلاقي مريع ، إذا أنغمس في العنف والمخدرات وأشكال عديدة من الجرائم والبطالة ، إلا أنه قد تزامن مع هذه الأوضاع والهبوط الأخلاقي صعود الطبقة الوسطى السوداء من الرجال والنساء المثابرين الذين صعدوا مع قوانين الحقوق المدنية وقوانين الفرص المتكافئة ليصبحوا تنفيذيين وتقنيين وموظفين فيدراليين وأصحاب أعمال وإن هذه الطبقة الجديدة هي الأكثر خوفاً من حيث أن المجتمع الأبيض يمارس عليها تمييزاً عنصرياً يتجلى في أوقات تناول الطعام أثناء العمل حيث يذهب البيض بعيداً عن السود وأنه تكاد لا تجمعهم مناسبة أو حتى أحياء مشتركة يسكن الأبيض إلى جوار السود أو شيء

■ «القبلة العنصرية، والمسكوت عنه في الخطاب السياسي الأمريكي

(١) راجع مقالاً بصحيفة الجارديان بعنوان «حرب الإمبريالية الثقافية» وترجم في جريدة البيان الإماراتية ، الأحد ٢٤ أبريل ١٩٩٤ م .

(٢) راجع تحقيقاً مجلة الوسط بعنوان «فرقان يكشف وجه أمريكا المريضة : نار سوداء في البيت الأبيض ، العدد ١٩٥ ، ١٠/١/١٩٩٥ م .

مشترك ، وهذه الطبقة هي التي لبست في الأساس نداء «مسيرة المليون» حتى يتيقظ المجتمع الأمريكي لأوضاع في حالة التفاهم والتفكك .

وفي حالة من حوار الطرشان سواء كان الحوار من قبل فرقان مع البيض أو كان من مارتن لوثر كينج قبله أو من إيجا محمد أو مالكوم إكس أو قيادات السود على اختلافها منذ تواجد السود إلى جانب البيض في المجتمع الأمريكي وكذلك من المعاملات البارزة في قضايا العنصرية الشهيرة قضية الممثل المعروف أوجي سيمبسون الذي أتهم خلال محاكمته بالعنصرية ضد البيض ، وهي القضية التي هزت أرجاء المجتمع الأمريكي . ولقد شعر السود في أمريكا بالغضب من نشر المؤسسات الأمريكية لإحصائيات وأرقام تدين السود وسلوكياتهم حيث بلغت نسبة البطالة بين السود في سبتمبر ١١,٣٩٤ ٪ مقابل ٤,٨ ٪ بين البيض . وأن نحو ٦٥ ٪ من العائلات السوداء يرعاها الأب وحده أو الأم وحدها . ويمثل السود ١٢ ٪ من سكان الولايات المتحدة ويشكلون ١٣ ٪ من مدمني المخدرات ، ٧٤ ٪ من مجرمي المخدرات وأن ٦٠ ٪ من السود ترفض طلباتهم حين يتقدمون للحصول على قروض عقارية أكثر من ٥٦ ٪ من عمليات القتل في أمريكا يرتكبها سود وأن ٥١ ٪ من ضحايا جرائم القتل سود أيضاً ، أن ٤٠ ٪ من ٣ آلاف المحكوم عليهم بالإعدام في أمريكا سود^(١) وعن علاقة السود باليهود ، تفيد التطورات الحادثة في المجتمع الأمريكي بأنه كانت علاقة تعاون في الماضي وتحولت اليوم إلى علاقة صراعية لأسباب متعددة ، ولقد كان إضراب المدرسين في مدينة نيويورك (١٩٦٨ - ١٩٦٩) بمثابة وقفة مواجهة قوية بين اتحاد المدرسين الذي تسيطر عليه اليهود والتنظيم الطلابي السود والمنظمات السوداء كما أن ظهور جيس جاكسون وهو يقبل ياسر عرفات في مستهل الثمانينات قد نفر منه اليهود وزاد الأمر تدهور تصريحات لويس فرقان أثناء مسيرة المليون ضد البيض والكاثوليك واليهود ويرى اليهود أن السود يشكلون تهديداً كبيراً لأوضاع المجتمع الأمريكي ومستقبلهم . وهذا الأمر في حالة من عدم الاستقرار والتسوية بين الطائفتين .

لقد ورد في الأهرام^(٢) خبر يفيد بأنه وفي سابقة تعد الأولى من نوعها ، قدم عدد من أبرز دعاة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة طلباً رسمياً إلى لجنة الأمم المتحدة للقضاء على التمييز العنصري ، يدعون فيه اللجنة إلى التحقيق في العنصرية التي تخيم على القضاء الجنائي الأمريكي ، خاصة فيما يتعلق بالتمييز ضد الزوج .

■ امريكيون يطالبون الأمم المتحدة بالتحقيق فى عنصرية بعض المحاكم

(١) السابق .

(٢) راجع خبر ورد بالأهرام بعنوان «أمريكيون يطالبون الأمم المتحدة بالتحقيق فى عنصرية محاكمهم فى ٢٠٠٠/٨/٦ راجع كذلك مقالاً حديثاً للرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر بعنوان «الوجه الجديد والمزعج لأمريكا (بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١) جريدة واشنطن بوست ٢٠٠٢/٩/٥ ، وراجع كذلك لكاتب السطور مقالاً بعنوان كارتر والباحثون عن الحقيقة ، الأهرام ٢٠٠٣/١/١٩ .

من عوامل سيناريو الانهيار فى المجتمع الأمريكى - مثله فى ذلك مثل أى مجتمع آخر ، وفى مجتمعات كثيرة - فى عالم اليوم ، هو المعدل العالمى لإدمان المخدرات الذى أرتبط بثنائية الإيدز والمخدرات معاً ، وتتصور الولايات المتحدة الأمريكية القائمة الدولية لاستهلاك المخدرات ، حيث يصل معدل الاستهلاك إلى ما يقدر بـ ٢٤٠ مليار دولار ، أى ما يزيد عن الدخل القومى لعدد دول من دول العالم الثالث مجتمعة .

هذا بينما تقدم تكاليف علاج المدمنين من المخدرات فى الولايات المتحدة بحوالى ١٠٠ مليون دولار بالإضافة إلى ميزانية تزيد عن المليار دولار يضعها البنتاجون بمكافحة تهريب المخدرات وتجارتها^(١) وتحظى قضية إدمان المخدرات بين الشباب والمراهقين من الأمريكيين باهتمام كبير فى الحملات الانتخابية بين المرشحين للرئاسة والأحزاب ومن قبل رجال الكونجرس لما يرون من حجم المخاطر التى تسبب فيها عملية إدمان الشباب الأمريكى على الاقتصاد والمجتمع والمجتمع الأمريكى مما قد يؤدي بالعصف به إذا ما أستمريت معدلات الإدمان ومعدلات الأموال على المخدرات بشكلها الحالى والمتصاعد .

لا أزل أتذكر من الحملات التى يشنها السياسيون الأمريكيون على كل من يقصر فى مواجهة قبلة المخدرات وآثارها المدمرة على المجتمع الأمريكى ، هذا المشهد الذى يظهر فيه أحد المنتقدين للسياسة الحكومية الأمريكية فيقول - بينما تظهر على شاشات التلفاز الأمريكى طائرة محملة بالكوكايين تم إجبارها على الهبوط حين طارت متسللة الحدود الجنوبية إلى داخل الولايات المتحدة ، إن هذه البلاد (أى أمريكا) لا تستطيع إجبار مئات الطائرات الأخرى المحملة بالكوكايين والمخدرات على الهبوط ومصادرتها ، حيث تصل سمومها إلى الشباب والمراهقين الأمريكيين ، بينما تستطيع إدارة هذه البلاد (وكان ذلك وقت رونالد ريجان) بأن تخلق طائرات أسطولها السادس لتجبر طائرة مدينة لدولة صديقة على الهبوط والتحقيق مع قائدها لأسباب غير مبررة قانونياً وأخلاقياً وسياسياً ، وكان يشير إلى اعتراض طائرات الأسطول السادس للطائرات المدنية المصرية التى كانت تقل الفلسطينيين الذين قاموا بعملية اكيلي لورا المعروفة وحاولت مصر نقلهم إلى تونس لكى يحاكمهم الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات الذى كان يقيم حينذاك فى تونس . وكانت الرسالة الإعلامية الواضحة هى الفشل الذريع للإدارة الأمريكية للتعامل مع المشكلة الحقيقية التى كانت ولا تزال تجابهها والمتمثلة فى تفاقم التأثير المدمر للمخدرات على المجتمع الأمريكى برمتها ، بينما تحقق النجاح السهل وغير المبرر أخلاقياً أو قانونياً أو سياسياً كحادث إنزال الطائرة المصرية المفترض أنها «صديقة» !!

(١) راجع تحقيقاً بعنوان «دولة المخدرات العظمى» بالبيان الإماراتية ١٣/٨/١٩٩٤ .

لقد سميت عملية تهريب المخدرات من دول أمريكا الجنوبية إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية بأنها «قنبلة أمريكا الجنوبية النووية ضد الولايات المتحدة ..» ولكنها قنبلة نووية لا تستخدم في الردع فقط كمعظم القنابل النووية الموجود في ترسانات الأسلحة التي تمتلكها بعض الدول ، بل أنها تستخدم بالفعل في الفتك . فتك نسيج المجتمع الأمريكي على جرعات متتالية . ولا يبدو أن الأمر بأبعاده المختلفة تحت السيطرة التامة في هذا الصدد .

■ الاصولية الاقتصادية الجديدة !!

عندما أندلعت مظاهرات عارمة في مدينة واشنطن سياتل ضد مؤتمر منظمة الجات في نوفمبر ١٩٩٩ ، شاهد العالم قوات الحرس الفيدرالي ، وكأنها قوات الأمن المركزي في دول العالم الثالث فضرب المتظاهرين بلا هوادة وتم إيقاف المؤتمر نظراً لعدم تمكن بعض وفود المؤتمر من الوصول إلى مقره نظراً لهذه الاضطرابات غير المسبوقة في تاريخ أمريكا . ثم تبع هذا هذا المشهد مشهد اضطرابات مماثل بحذافيره في مطلع عام ٢٠٠٠ أمام مقر البنك الدولي بواشنطن حيث اشتبك المتظاهرون وأغلبهم من الشباب الأمريكي مع «قوات الأمن المركزي الأمريكية» وكان ذلك في وقت انعقاد قمة الدول السبع الكبرى وقد تم تكسير المداخل الزجاجية للبنك الدولي وعدد كبير من واجهات المحال والسيارات ، كأى مكان في العالم الثالث والغريب حقاً أن شرح الكثير من فضائيات ووسائل الإعلام العربية كان ساذجاً وأفاد بأن هذه هي ثورة الشباب الأمريكي لغياب العدالة بين أغنياء العالم وفقرائه ، ولقد تابعت هذه التحليلات بأن هامش ، خاصة وأنى كنت قد حضرت مؤتمر جمعية مستقبليات العالم في صيف ١٩٩٨ وثار العديد من المناقشات العلمية حول تأثيرات الجات وانهمكت حينذاك في قراءة العديد من الأبحاث والدراسات والكتب ووجدت أن أبناء الطبقة الوسطى في المجتمع الأمريكي يتعرضون وسيعرضون إلى أوضاع اقتصادية مجحفة للغاية وستزداد إجحافاً في المستقبل بفعل قرارات العولمة التي تصدرها دوائر بعينها تمثل إدارات الشركات المتعددة للجنسية بها . Trans National وأن هذه الأخيرة هي التي تحرك قوانين العولمة أساساً لمصلحة القلة القليلة جداً في هذا العالم ، وأن المواطن الأمريكي الذى يدير الأعمال الصغيرة والمتوسطة سيتلاشى أمام طوفان واستغلال الشركات المتعددة الجنسية ، ولذلك لقد كانت مظاهرات واشنطن سياتل وبعدها واشنطن العاصمة من قبل الشباب وممثلى الطبقة الوسطى في المجتمع الأمريكى ليست من منطلق رفاية الشهامة والدفاع عن حقوق الإنسان فى العالم وعبور الفجوة بين الأغنياء والفقراء على مستوى الكوكب . بل كانت الدوافع واضحة من أجل لقمة عيش المواطن الأمريكى العادى الذى تحرك من منطلق «عض قلبى ولا تعض رغبى ا!» إن هناك العديد من الدراسات التى كشفت عن وجود مؤامرة تحاك ضد المواطن الأمريكى العادى ، ومن الأمور الطريفة أن أحد رجال الكونجرس الأمريكيين سأل أعضاء الكونجرس كم منكم وبأمانه قد قرأ أتفاقيه

الجات الأخيرة قبل التوقيع عليها ؟ وأضاف أتحدى أن يكون أحد منكم ممن وقعوا بالموافقة عليها قد قرأها بعناية ، لأن بها ما يتضمن كل مصالح القلة الغنية من أصحاب الشركات عابرة الجنسية ، وأن بها الكثير مما يتعارض مع مصلحة المواطن الأمريكي العادي بل ما يتعارض مع القانون الفيدرالي الأمريكي ، وهو الأمر الذي لم يتضمن ما اقترحه الرئيس السابق جورج بوش الذي رأى أن تكون مسودة اتفاقية الجات غير متعارضة مع القانون الفيدرالي الأمريكي في حالات بعينها على وجه الخصوص .

والخلاصة هنا أن ما سمي في الغرب ذاته «بالأصولية الاقتصادية» التي من شأنها سحق اقتصاديات المواطن الأمريكي العادي على المدى البعيد لمن المؤثرات الداعمة لعوامل سيناريو الانهيار إذا ما لم يعالج هذا الأمر .

■ الاتجاه ضد الديمقراطية

تفيد الدراسات المتزايدة بالإضافة إلى تحليل الواقع الأمريكي المعاش إلى أن الولايات المتحدة وفي ظل عصر العولمة تتجه نحو تقليص الهامش الديمقراطي لديها بفعل عوامل عديدة . فمن المعروف أن الديمقراطية وحرية التعبير في أمريكا وفي غيرها من دول العالم من الأمور الحيوية لضمان «النظام» أي ضمان نظام حركة المجتمع وتفعيل طاقات وزيادة معدلات أدائه .

فالديمقراطية وحرية الرأي ليست رفاهية أو شيانة ولكنها من صميم الحفاظ على النظام وازدهاره وتقدمه وبالتالي هي ضرورة أساسية كالماء والهواء «للنظام العام» ولكن مع وجود آليات خفية للسيطرة على بوتقة الانصهار وحركة المجتمع واتجاهاته الاستراتيجية العامة ، ولكن ومع ظواهر التفكك البادية وبوتقة الانصهار التي لم تعد تصهر كما ينبغي ووجود الكثير من المستجدات على الساحة الأمريكية ، بدأت جموع الشعب الأمريكي تدرك آليات احتكار وسائل الإعلام وتوجيهها جهة شمولية في كثير من المجالات والموضوعات ، فلم تعد تقدم سوقاً حقيقية للأفكار ولا تقدم الحقائق كما هي ، بل هناك قدر كبير من الأكاذيب التي توجه للرأي العام وتزرع في العملية التعليمية والإعلامية^(١) فهناك مثلاً الآلاف الذين يدركون أن خزانات المياه الجوفية في أماكن حيوية في القارة الأمريكية أصبحت مشبعة بالإشعاعات النووية ، وهناك مئات بل آلاف الضحايا ولكن على من تدركه هذه الإشعاعات أن ينتقل من مكانها إلى مكان أكثر أمناً ولكن لا توجد فرصة لأحد أن يعلن عن هذا الوضع فقط وغيره من العديد من المحاذير الأخذة في الأزدباد . والعديد من الإجراءات المتزايدة التي تقلل بلاشك من الهامش الديمقراطي الأمريكي الذي يعتبر من أوسع

(١) راجع المرجع التالي : بنيت ، جيمس ، وريتزو ، الأكاذيب الرسمية : كيف تضللنا واشنطن ؟ ترجمة محمود برهوم ونقولا نصر ترجمة محمود برهان ، دار الفكر للنشر والتوزيع - عمان الأردن ١٩٩٣ .

الهوامش الديمقراطية في العالم بلاشك فمثلاً أثار التقرير الأخير الصادر عن اللجنة الوطنية حول الإرهاب تساؤلات عديدة حول تقييد الحريات والحقوق المدنية في أمريكا ، حيث من المقرر أن تتأثر حركة «الجمعيات الأهلية» وتمويلها في الولايات المتحدة تحت بند مكافحة الإرهاب ومراقبة حركة المشتبه فيهم أو في المنابر والمواقع التي قد يستخدمونها^(١) .

ولقد كتب الكثيرون عن تقلص الهامش الديمقراطي الأمريكي وتوقعوا المزيد من التقلص والتقليص الكبير كما ورد في كتاب المفكر الشهير وعالم اللغويات نوم تشومسكى بعنوان «صناعة الرأي العام والاقتصاد السياسي لوسائل الإعلام»^(٢) . ولقد أفاد تشومسكى أن عامل تقلص وتقليص الهامش الديمقراطي في المجتمع الأمريكي سيكون له عواقبه الوخيمة ولاشك أن ذلك سيؤدى إلى الانفجار والتفكك ، حيث أن السيطرة الشمولية لم تثبت أنها قد نجحت ، لا فى السيطرة ولا فى تحقيق النماء والازدهار . وإنما نجحت فى تحقيق عوامل الكبت والكراهية المولدة للانفجار والتفكك وهذا درس التاريخ لمن يعى ويتعظ بتواضع .

ولقد ثبت هذا بالدليل القاطع فى حالة الاتحاد السوفيتى وتفكك ما كان يعرف بتكتل دول المعسكر الشرقى بما أن مجال المستقبليات قد سعى ضمن المسميات المتعددة له بالإنجليزية بتعبير Futury على وزن الكلمة الإنجليزية History أى التاريخ كامتداد للمستقبل الذى لا يمكن تجاهله .

فلقد حاولنا من خلال هذا الجزء الثالث من الدراسة أن نرصد عدة أدبيات من أهم ما رأيناه فى بنك ضخيم للبيانات من الثمانينات إلى اليوم منتهجى فى ذلك أسلوب تحليل الخاصية Trend Analysis واستخراج الخاصية Trend Extrapolation بوضع يدنا على تلك الأدبيات المحورية التى تمكنا من التماس أهم خيوط التحليل المؤدى لفهم عمق الأزمة الراهنة التى تعانى منها أمريكا ومعها العالم كله والعالم العربى الإسلامى على وجه الخصوص .. ونرى أن مشاركة العالم كله فى إدارة هذه الأزمة واجبة لأنها على الجميع يهدف دعم الفكر الدبلوماسى ولغة الحوار الإيجابى لايجاد رأى عام عالمى ويعترض على إدارة العلاقات الدولية بأساليب العسكرية والهيمة التى لن تحقق لقصار نظر «القلة الاستراتيجية» أهدافهم فى نهاية المطاف بل قد تؤدى إلى كارثة للجميع فى نهاية الأمر . والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان .

(١) راجع تحقيقاً بجريدة الحياة الـ ** بعنوان «بين التصدى للإرهاب وتفويض الحقوق المدنية فى أمريكا» حسن منيمنة ٢٣/٧/٢٠٠٠ ، كذلك راجع مقال كارتر الذى سبق الإشارة إليه بعنوان «الوجه الجديد والمزعج لأمريكا» .

(٢) راجع قراءة نقدية لكتاب نوم تشومسكى وأدورد هيرمان بعنوان «صناعة الرأي العام والاقتصاد السياسى لوسائل الإعلام» لكاتب السطور ، مجلة السياسة الدولية العدد ١٠٢ ، أكتوبر ٩٠ .